مختصر عن نجاحات الامبراطور الأخير والبروفيروغنتوس المولى يوحنا كومينوس، ووصف لأعمال ابنه الشهير الامبراطور والبرفيروغنتوس المولى مانويل كومينوس. [كتبت من قبل السكرتير الامبراطوري يوحنا كيناموس].

الكتاب الأول من التواريخ

١- لم ينظر إلى كتابة التاريخ انه عمل غير مشرف من قبل القدماء الذين كانوا حكماء، فعدد كبير منهم حصلوا على تقدير كبير لعملهم بالتأريخ، ويذكر انسان في التاريخ أعمال الهيلينيين، ويصف آخر تدريبات قورش منذ طفولته، والأعمال التي أنجزها عندما بلغ مرحلة الرجولة.

وهناك خطر ان ماكشف عنه في وقت ما قد يتعرض للإخفاء ثانية، لكن الرجال الذين دونوا الأشياء في الكتب، كما لوأنها نقشت على أعمدة لن تفنى، منحوها حياة مستمرة، ومن هذا القبيل العمل الحالي.

وإنني أرى أن هذه الأعمال هي ليست مما لايستحق القيام به أبداً، وهذه الأعمال يتوجب تزويدها بشكل جيد بالمعلومات عن الوقائع الفردية، وكقاعدة عامة ينبغي عزل ذلك عن القضايا الوثيقة الصلة بهذه الحياة، وما من شيء من هذه الأمور، التي أراها ضرورية، يمكن الأخذ بها بالنسبة لنا، ومع هذا، ينبغي لذلك ألاّ نلتزم بالصمت حيال الوقائع التي حدثت في أيامنا، وبالحري طالما توفرت فرصة مناسبة أمامنا، علينا

أن نلتزم بالعناية حتى لانصدّ الناس عن العودة إلينا ثانية، ويمكن أن ننجح إذا ما نظرنا نظرة عابرة إلى أخبار جميع الأشياء العائدة إلى الحياة العامة للبشرية وقدمنا عرضاً لأعمال امبراطورين، واحد منهما فارق هذه الحياة قبل قدومنا إلى هذا العالم، وازدهر الآخر في أيامنا، ثم هلك تاركاً الامبراطورية إلى ولد في مقتبل العمر، وهذان هما يوحنا ومانويل كومينوس.

ولانحتاج نحن الذين تولينا القيام بهذا العمل أن نحكي ثانية أصولهما ومن أين جاءا (لأن أحدهما عهد إليه بالمنصب الامبراطوري بحكم علاقته بأبيه —ألكسيوس الأول كومينوس— والثاني بحكم أنه حفيده)، ولاكيف أدارا الشؤون الرومانية العامة، لأن ذلك —كما أعتقد— قد أشبع وصفاً من قبل الذين دونوا هذه الأعمال، كما اننا لسنا حتى بحاجة لأن نروي كيف ثار ضدّ نقفور [الثالث بوتانياتاس] الذي حكم الامبراطورية آنذاك، وكان رجلاً قد تخطى كثيراً مرحلة الشباب، وكان في مرحلة تقهقر الحياة، وكما قلت: لقد روي هذا بشكل صحيح من قبل أشخاص كتبوا دون أن يحملوا مشاعر عداء نحوه(١).

وسأتولى عرض أعمال يوحنا باختصار، أو لأقل بايجاز، بسبب أنني —كما قلت— لم أكن موجوداً في أيامه، ولاأعرف هل يمكن لأحد أن يتولى عرض أعمال خليفته مانويل أفضل مني، بسبب أنني رافقته في عدد من حملاته في كلا القارتين قبل أن أكون شاباً، وقصدي طالما أن المناسبة موائمة أن نعود بروايتنا إلى البداية، ومن هناك نبدأ تاريخنا.

٢- عندما ختم ألكسيوس حياته [١١١٨] خلفه يوحنا في منصب الامبراطورية، الذي سلف ووعد به من قبل والده، وبعدما أوقف نفسه على الشؤون المدنية بقدر ماسمح الوقت له، انطلق نحو آسيا [١١١٩] وعلى مقربة من نهري ليكوس Lykos [شوروكسوشي]

وكابـروس Kapros [قاضي كـوي ديري] الفـريجية قـامت مـدينة لودقيا [قـرب دنزلي] ,وكان الترك قـد استولوا عليهـــا فيما مضى منذ بعض الـوقت، وقد نـوى الامبراطور اعـادتها إلى الأراضي الرومـانية، وقـد وجّـه حملته الملحـوظة ضـدّهـا، وعندمـا كان على مقـربـة من فيلادلفيـا [علاشهـر] أقام سياجاً وعسكـر هناك، وبعث بواحـد من المحظيين عنده واسمه يوحنـا [أكسوكوس] وكان قريبـاً من الترك عن طريق أجداده(٢)، بعثـه مع قوة كي يحاول الاستيـلاء على المدينة، ثم قـام بعد قليل —بنـاء على رغبة جيشه كله— بالاستيلاء عليها بـدون مقاومة تقريباً. وكان هناك حشـد من البرابرة، ولايقل عن ثمانمائة من مشـاهير رجالهم، وكـان بينهم ألب—قـرا(٣)، وكان رجـلاً واسع التجربـة في عدد كبير من المعـارك، ثم قـام بترك حاميـة كافيـة في المدينة وشحنهـا بما يكفيها من مـؤن، ومن ثم انطلق يريد بيزنطة.

وبعـدمـا عسكـر لبعض الـوقت ضـد سـوزوبـولس Sozopolis (أولوبورلو)(٤) تمكن بسهولة من وضعهـا تحت السيطرة الرومانية، وأنا سأحكي كيف حدث ذلك، كـانت سوزوبـولس في الماضي إحدى المدن البـازرة في آسيا [الصغـرى] متمركـزة على منحـدر، وذات موقع مسيطـر، وكـانت صعبة الـوصول إليهـا من كل جـانب، باستثنـاء جانب واحـد، الـذي وفر ممـراً ضيقاً جـداً يوصل إليهـا، وكان من المحـال سحب آلات ورفعهـا إليهـا، كما لم يكن بإمكـان أيـاً من مـواد الحصـار الحربي أن تهيأ ضدها، وكان الوصول إليها من قبل الـرجال صعباً مالم يزحفوا ضدها في مجموعات صغيرة. لقد امتلكت المدينة هذه الأحوال.

وفي الحقيقـة جلب التفكير بـالاستيـلاء عليهـــا في البـدايـة اليأس إلى الامبراطـور، لكـن تهيأ لـه خطـــة جعلت من السهل اعطـــاء المدينـة إلى الرومـان، وجعلته يحصل على شهـرة عظيمة بين النـاس جميعاً، وسأوضح ماهية هذه الخطة:

لقد قام باستدعاء اثنين من حملة الرماح لديه، وكان اسم أولهما باكتياريوس Paktiarios واسم الآخر ديكانوس Dekanos ، وأمرهما مع قوتهما بأن يمضيا مباشرة إلى أبواب المدينة، ومن ثم يتوليا رمي الذين كانوا متمركزين فوق الأسوار، وعندما يتقدم هؤلاء، توجب على [البيزنطيين] الفرار دونما خجل، حتى يتمكنوا من استدراج المطاردين لهم إلى أقصى مسافة ممكنة، وتوجب عليهم لدى تركهم للمكان الضيق، وقد امتلكوا التفوق، الانعطاف بشكل مفاجيء والهجوم من هناك، بغية احتلال منطقة الأبواب، وهكذا انطلقوا نحو المدينة، وعندما رآهم البرابرة يقتربون، فتحوا الأبواب واندفعوا مسرعين نحوهم بقدر ما امتلكوا من قوة، وما ان أدار [البيزنطيون] ظهورهم، حتى بدأت عملية المطاردة تأخذ أبعادها، ثم قام أحد الرجال بالانعطاف، فلحق به عدد كبير من الرومان، وعندما وصلوا إلى الأبواب، ترجلوا عن ظهور خيولهم ووقفوا هناك، وإثر ذلك عرف البقية من الجيش الروماني ماحدث، فزحفوا بسرعة كبيرة، ووقع العدو في الوسط، ففر في هذا الاتجاه، وفي ذاك نحو السهل المجاور، وتمّ الاستيلاء على المدينة.

٣- وانطلق الامبراطور من هناك، فاستولى على حصن هيراكوكوريفايت(٥) Hierakokoryphite وعلى عدد كبير آخر، كان معظمها قائماً في أحواز أطاليا [أنطاليا]، وهكذا عاد إلى بيزنطة، وبعد إقامة قصيرة هناك انطلق يؤم مقدونيا، فقد كان البشناق(٦) قد عبروا الدانوب مع جيش، وتولوا خرق الحدود الرومانية، لكن بحكم أن الشتاء [١١٢١-١١٢٢] فاجأه هناك، فقد أمضى الفصل في مكان حول مدينة برهويا Berrhoia [ستارازغورا] وكان يستهدف من بعض الجوانب الاستعداد للحرب، لكنه أراد بالدرجة الأولى أن يكسب إلى جانبة بعض مقدميهم، ذلك انه عندما كان سيمزقهم بهذه الصورة، كان سيسهل عليه التغلب على الآخرين،

وبعدما تمكن من اقناع كثير منهم بالالتحاق به، وذلك بوساطة الرسل، قام في الربيع بالزحف ضدّ البقية، راغباً في حسم الأمور عن طريق القتال.

وعندما اصطدم الجيشان ببعضهما بعضاً، بقيت المعركة متأرجحة لبعض الوقت، ثم أصيب الامبراطور نفسه بسهم في رجله، إنما بما أن الرومان قاتلوا بشجاعة فقد هزم البشناق هزيمة ساحقة، وقتل بعضهم، ووقع بعضهم الآخر بالأسر، وكان عدد البشناق الذين تراجعوا إلى معسكرهم معتبراً، وقد عدّ هؤلاء الفرار عملا ليس فيه جدوى، واختاروا تحمل المخاطرة هناك مع زوجاتهم وأولادهم، وقد قاتلوا أمام عرباتهم، التي كانوا قد غطوها بجلود الثيران، وربطوا بعضها مع بعض ووضعوا في هذه العربات زوجاتهم وأولادهم، وهكذا وقعت ثانية معركة حامية، وسقط القتلى من على الجانبين، واستخدم البشناق العربات بمثابة حصن وهكذا ألحقوا أذى عظيماً بالرومان، وعندما أدرك الامبراطور هذا الحال، رغب في أن يترجل عن ظهر حصانه، وأن يتابع القتال على الأقدام مع جنوده، وعندما لم يوافقه الرومان على ذلك، أمر حملة الفؤوس من حوله (وكان هؤلاء من الأمة البريطانية، داخلين في خدمة الامبراطور الروماني منذ زمن طويل) أن يقوموا بقطع [العربات](٧) المواجهة لهم بفؤوسهم، ونظراً لدخولهم المعترك على الفور، غدا الامبراطور بذلك سيداً مسيطراً على معسكر البشناق، وجاء عدد كبير من الذين طلبوا السلامة بالفرار طواعية إلى الامبراطور، راغبين في أن يؤخذوا أسرى، وقد جرى تدريبهم على طرائق الرومان، وبعدما جرى تجنيدهم وتسجيلهم بالسجلات العسكرية، خدموا لزمن طويل.

٤- هكذا كان مرور البشناق في أراضي الرومان، لكن الامبراطور انشغل ثانية بشؤون آسيا، وحيث انه هاجم البرابرة بشكل غير متوقع في الشتاء هناك [١١٢٤؟] أخذهم أسرى تقريباً، وقام بتحويل عدد كبير

منهم إلى الايمان الصحيح، وبذلك زاد من عدد القوات الرومانية، وبما انهم كانوا غير مدربين على الأعمال الزراعية، بل يعتمدون على شرب الحليب وأكل اللحوم، مثلهم في ذلك مثل البشناق، وبما انهم كانوا يعسكرون متفرقين في السهل، كانوا فريسة جاهزة لكل من كان يرغب في قتالهم، فعلى هذه الصورة عاش الأتراك من قبل.

واندلعت حرب بين الرومان والهنغار الذين سكنوا في المنطقة الواقعة فيما وراء الدانوب، وذلك للأسباب التالية: كان للازلو الأول Laszlo ، ملك هنغاريا ولدين هما ألموس وستيفن [اصطفان الثاني](٩)، وعندما توفي والدهما تسلم ستيفن —الذي كان هو الأكبر— العرش الملكي، والتجأ الآخر إلى الامبراطور، ذلك ان عادة الهنغار كانت انه عندما يموت حاكمهم مخلفاً أولاداً، فإن الذي يتسلم السيادة عليهم مادام بدون ولد ذكر، يتعايش الاخوة مع بعضهم ويتمتعون بعلاقة طيبة أحدهم بالآخر، لكن عندما يلد طفل له، فإنه [أي الملك] لن يمنحهم أية استمرار في البلاد، إلا إذا اقتلعت أعينهم، ولهذا السبب جاء ألموس إلى بلاط الامبراطور، وقد عامله الامبراطور برعاية، واستقبله بلطف، لأن الامبراطور جون كان متزوجاً من [بيروسكا Piroska] ايرين ابنة لازلو، وكانت امرأة فاضلة جداً لم تر العين مثلها أبداً، في درجات السمو الأخلاقي التي امتلكتها، فكل ماكان يزودها به زوجها الامبراطور والامبراطورية، لم تكن تدخره على شكل حصص لأولادها، كما انها لم تنفقه في زيادة زينتها وترفها، بل أمضت حياتها كلها تقدم النفع لمن استجداها شيئاً، أو لمن طلب منها عوناً، وقد أسست ديراً كرّسته على اسم البانتوكراتور Pantokrator [المسيح القادر](١٠)، وكان من أجل الأديرة وأكبرها حجماً، هكذا كانت هذه الامبراطورة.

وعندما سمع الملك الهنغاري أخبار أخيه، أرسل مبعوثين إلى الامبراطور وطالب بطرد [ألموس] من الأراضي الرومانية، وعندما وجد

[اسطفان الثاني] نفسه غير قادر على فرض مطالبه على الامبراطور، عبر نهر الدانوب، وحاصر بلغراد [بيوغراد] وهي مدينة قائمة إلى جانبه، واستولى عليها [١١٢٨]، واجتثها هدماً حتى الأساسات، ونقل أحجارها بالقوارب، وبهم عمّر زيوغمي Zeugme [أو زيوغمنون وهي زيمون المعاصرة](١١) وهي مدينة باتجاه سيرميون Surmoin [سرمسكامتروفيكا] وقد عاشت لسنوات طوال، لكنها سويت بالأرض أيام حكم الامبراطور مانويل، وهكذا بتغير [السعد] استخدمت كلها في سبيل بناء أسوار مدينة بلغراد، غير أن هذا سأحكيه فيما بعد، عندما يصل سياق الرواية إلى هذه السنوات.

وعندما سمع الامبراطور بهذا، اندفع عابراً للدانوب مع جيشه كله، آخذاً معه قوة حليفة [أي مرتزقة] من الترك(١٢)، وعسكر هناك إلى جانب ضفة الدانوب واستعد للمعركة، لكن حدث أن ستيفن كان مريضاً في بعض جسده، كما وكان مشغولاً بإعادة الاستيلاء على بعض الأماكن في وسط أراضيه، ومع ذلك لم يرغب بالظهور بعدم المبالاة، لذلك أرسل قواتاً بأقصى سرعة ممكنة، مع أوامر بالحيلولة بين الامبراطور وبين العبور، ونفذ الهنغار المهمة وقاموا بما أمرهم به، وحتى يجعل الامبراطور المواجهة غير فعّالة خطط كما يلي: فقد قام بفصل القوات الحليفة، وأمرها بأن تساير صعوداً مجرى النهر إلى منطقة اسمها تمبون Tempon، حيث هناك ربوة مرتفعة من الأرض الهنغارية وممتدة حتى النهر، فمن هناك توجب عليها الجواز، ومكث الامبراطور مع القوة الرومانية الأخرى في مواجهة مخاضه كرامون Kramon [كاما]، وتظاهر أنه سيعبر من هناك فوراً، وعندما تم تنفيذ ذلك، عبر الرومان بدون صعوبة، وكان الهنغار غير قادرين في البداية على مقاومتهم، فلاذوا بالفرار مسرعين، وتمت المطاردة ضاغطة باتجاه النهر حيث اندفع الهنغار في جماعات لعبور جسر قائم فوق مجرى النهر، وسقط الجسر، وجرف النهر

عـدداً كبيراً منهم، بعـدمـا فـارقـوا أرواحهم، غـير أن كثـيراً منهم سقط في أيـدي الـرومـان، وكـان من بينهم آكـوص Akus وكلدي Keledi (١٣)، وكانا من أبرز رجالات الهنغار.

وعنـدمـا نجح الامبراطـور بهذا، استحـوذ على حصن كـرمـون دون مقـاومـة، ثم قـام على الفـور بعبـور النهر عـائداً إلى الأراضي الـرومـانيـة، وبعدما قام بتقوية برانيتشيفو Branitshevo [قرب دوبرافيكا] بحامية من الجنـد، تحت إمرة كورتكيوس Kourtikios عاد إلى بيزنطة، وبعـد وقت قصير حاصر الهنغار برانيتشيفو واستولـوا عليها، وقتلوا بعضاً من الرومـان فيها، وأخذوا البقية أسرى، لكن كـان هناك بعضاً ممن طلب السـلامة بـوساطـة القتـال، وغضب الامبراطور ممـا حصل، وحكم على كـورتكيـوس بتهمـة الخيـانـة، وأنـزل على ظهـره عـددا كبيراً من الضربـات، مع انـه لم يغادر الأسـوار [كما قـالوا] حتى انـدفع العـدو إلى داخل المدينة بكامل القوة، وجعل البيوت طعمة للنيران.

٥- وفي هـذه الآونـة (١١٢٩-١١٣٠) تـآمـر الصرب أيضـاً —وهم شعب دلماشي— وثـاروا وأخضعـوا حصن رهسـون Rhason [رصنج] ولهذا السبب انتقم الامبراطور من كريتوبلوس Kritoplos ، الذي كان مـوكلاً إليـه أمور الـدفاع عن ذلك الحصن، وأمـر فطيف به في الأسـواق، وقـد ارتـدى ثياب امـرأة، وهـو راكب على ظهـر أتان، ومضى ثـانيـة إلى برانيتشيفو، وأعـاد بناءها بسرعة، وكان الجيـش منذ وقت مضى يعاني من برد الشتاء ومن نقص بالضروريات، ولذلك كـان في حالة يائسة، وعندما علم الملك الهنغـاري بهذا، قـرر عبـور نهر الدانـوب بأقصى سرعـة ممكنـة ومهاجمة الجيش وهـو غير متوقع لذلك، وكان في بـلاد الهنغار، سيدة ذات منبت لاتيني، متميزة بثرائها وبـأشياء أخرى، فأرسلت إلى الامبراطور تخبره بما كان قـد خطط، وحيث انه لم يكـن قادراً على الاشتباك معهـم بقوات مكافئة، بسبب ماذكرنـاه عن معاناة جيشه من المرض ونقص الحاجيات،

قام بتحصين المدينة بالقدر الممكن وانسحب، وفي الحقيقة قام بغية تجنب الاصطدام بالجيش الهنغاري باتخاذ طريق وسط منطقه ذات شعاب وعرة، كانت تدعى محلياً باسم سلّم الشيطان، وانقض الجيش الهنغاري هناك بشكل غير متوقع على الوحدات الموكل إليها حماية الساقة، لكنه لم يلحق الأذى بالرومان، وانسحب الهنغار بعدما جمعوا بعضاً من الأشياء المعلقة التي شكلت الخيمة الامبراطورية، والتي كانت قد تركت لعدم توفر حيوانات الحمولة، ونجا الجيش الروماني دون أن يصاب بأذى.

وبعد وقت قصير، زحف الامبراطور إلى آسيا، وأسرع بغية الاستيلاء على مدينة قسطمون Kastamon [كاستامونو] التي هي مجاورة لمدينة بفلاغونيا Paphlagonia [١١٣٢](١٤). فقد اعتاد الأتراك الساكنين هناك على الاغارة على المنطقة المجاورة التي كانت خاضعة للامبراطور، وأساؤوا دوماً معاملة الرومان الذين كانوا هناك، وفاجأ الامبراطور الأعداء بضخامة استعداداته للحرب، وأرغمهم على التخلي عن المدينة وعن أنفسهم لصالح الرومان، وإثر عودته إلى بيزنطة أقام احتفالاً رائعاً بانتصاره، وعندما تمت صناعة عربة من الفضة محلاة بشكل كثيف بالذهب أعد نفسه لدخولها، ومع ذلك لم يركب بها، ولعل سبب ذلك تجنب العجرفة والغرور.

وعوضاً عن ذلك وضع فيها تمثالاً لأم الرب، وسار هو يحمل شارة الصليب وتبعته العربة، وكان منظراً رائعاً للبيزنطيين أن يروا شيئاً —كما أعتقد لم يروه من قبل— ولم يشهدوه منذ الأيام التي قاد فيها أباطرة أسرة هرقل وأسرة جستنيان المملكة الرومانية.

٦- وكان الشعب الروماني مشغولاً بهذه المسائل، لكن [كمشتكين غازي ابن دانشمند]، الذي كان وقتذاك حاكماً لكبادوكيا، قام بتطويق قسطمون Kastamon وحاصرها بجيش(١٥). وحال الحظ بين

الامبراطور وبين شن الحرب، (لأن قرينته ايرين فارقت الحياة الدنيا، وكان هو نفسه قد أصيب بمرض ثم شرع يتعافى منه في بيزنطة)، وانهك [كمشتكين غازي] المدينة أولاً بالتجويع، ثم استولى عليها بقوة الحصار [١١٣٢-١١٣٣]، واثرت هذه الفاجعة كثيراً على معنويات الامبراطور، وحدث آنذاك أن توفي [ابن] دانشمند [١١٣٤-١١٣٥] واستحوذ ابنه محمد على السلطة، وكان على عدم وفاق مع صاحب مدينة قونية، الذي قدره الأتراك أكثر من سواه، ودعوه باسم السلطان(١٦)، وأرسل الامبراطور جون رسلاً من قبله إلى قونية، وبعد أن كسبوا صداقة السلطان، أقنعوه أن يقاتل إلى جانب الرومان وضد محمد، وقبل أن يمضي وقت طويل جاء واحد من أعيانه إلى البلاط ومعه جيش ليعطي رهائن ولينخرط بالقتال.

وجاء الامبراطور إلى غانغرا [جنكيري] مع الرجال المذكورين، ونصب خيمته أمام السور، بغية الإعداد لهجوم على التحصينات في الصباح، وتصور محمد نفسه انه لن يكون قادراً على مواجهة الامبراطور في القتال، وعرف ان عليه ان يكسب إلى جانبه السلطان، الذي كان مثله من أصل واحد، وأزال الرجلان خلافاتهما واتحدا على مواجهة الرومان، وفي تلك الأثناء قامت القوات الرديفة من الترك بالمغادرة والفرار ليلاً وذلك بناء على دعوة من السلطان، ولدى ادراك الامبراطور لهذه الخيانة غضب غضباً شديداً، وخطط للانطلاق من هناك على الفور، لكن بعض الرهبان، الذين صدف أن كانوا موجودين، حالوا بينه وبين القيام بذلك، وأصروا أن الذي يحتاجه للاستيلاء على غانغرا هو أن يكون شجاعاً، ولاقتناعه بما قالوه قام في الصباح التالي بمهاجمة الأسوار، غير أنه صدّ عنها، فانتقل إلى رهينديكن(١٧) Rhyndakene حيث أمضى الشتاء هناك مع الجيش كله، وعانى الرومان الذين أمضوا وقتاً طويلاً هناك معاناة كبيرة من الجوع، حيث لم يوجد مكان للحصول منه

على المؤن من أجل الشتاء.

وانطلق من هناك، ومضى إلى قسطمون Kastamon ، وبعدما استولى عليها بالاتفاق، قاد الجيش إلى غانغرا، وعرف الأتراك الذين كانوا مستولين على المدينة، أن قواتاً [تركية] قد احتشدت ثانية عند رهينديكن، وتردد هؤلاء في البداية بشأن تسليم المدينة إلى الامبراطور، حيث كانوا يأملون بالنجدات، ولكن بما أن تلك القوات، لم تكن قد اجتمعت بعد في المكان نفسه حتى تفرقت [لأنها لم تكن قادرة على القتال في فصل الشتاء، حسبما سلف وبينت فيما مضى] فقد أرغمتهم الحاجة فسلموا المدينة له، بشرط أن يغادروا هم والأتراك الذين أسرهم الرومان عندما كان [كمشتكين غازي بن] دانشمند مايزال حياً دونما أذى، ويتحرروا من السيطرة الرومانية، غير أن الأتراك آثروا على الحرية التي توفرت لهم، الخضوع عن طواعية للامبراطور والحصول على فضل رعايته، وشكلوا رديفاً هاماً للقوات الرومانية.

٧- وفيما يلي تبيان لأصول مسألة الحروب الرومانية الايزورية، ذلك ان ليون الأرمني«١٨»، استولى على عدد كبير من المدن الايزورية [أي الكليكية] التي كانت خاضعة للرومان، وشرع بشكل خاص بحصار سلوقية [سيليفكي]، وعندما علم الامبراطور بهذا، حشد قواته، واندفع بسرعة كبيرة نحوها [١١٣٦-١١٣٧]، ولهذا السبب، ولسبب آخر سأقوم بايضاحه، زحف الامبراطور إلى كليكية، فعندما غادر بوهيموند(١٩) حاكم انطاكية هذه الحياة الدنيا [١١٣٠] أرسل أعيان البلاد إلى الامبراطور يقولون: إنه إذا ما وافق على خطبة ابنة بوهيموند إلى مانويل، أصغر أولاده، فإن مملكة انطاكية ستؤول إلى سلطانه بعد الزواج مباشرة، لكن حتى قبل أن يصل إلى كليكية، غير[الأنطاكيون] نواياهم، وعوضاً على الصداقة والتحالف أصبحوا معادين جداً له، ولادراكهم انهم لايضارعون الجيش الروماني في قدراته، قرروا انه يتوجب عليهم كسب

ليون إلى أنفسهم، وهكذا قاموا باخراج هذا الرجل من السجن، وأطلقوا سراحه —ذلك أنهم كانوا من قبل قد قهروه بالحرب وأودعوه السجن لديهم— وحرروه بعدما أخذوا عليه العهود انه سيكون صديقهم وحليفهم ضدّ الامبراطور، وهكذا سرحوه بكل لطف، وعندما وصل الامبراطور إلى كليكية استولى على المصيصة، وكان ذلك بعد اخضاعه لطرسوس وأذنة، ثم عسكر أمام عين زربة جنوب سيس.

وحدثت في الوقت نفسه بعض الأشياء حسبما يلي:

كان لدوق بويتو Poitou ، القائمة دوقيته حول خليج ايونيا [كذا] ولدين، وعندما توفي الأب، استقر واحد منهما على عرش آبائه، ووصل الآخر إلى كنيسة القيامة في القدس متخفياً على شكل رجل فقير، وعندما رآه المحافظ هناك، أثاره مظهره الجميل وحجمه، فاقترب منه وطلب منه أن يكشف عن هويته، وأجابه الآخر بأقل ماعتقد انه يمكن توضيحه، لكنه كان غير قادر على اقناعه، لذلك قام هذا [الغريب] بإعلان جميع الحقائق حول هذا الرجل، وبعدما استدعى [الملك] ريموند (ذلك أن هذا الاسم أطلق عليه) إليه، أقنعه أن يخطب ابنة بوهيموند، التي لم تكن قد بلغت سن الزواج(٢٠).

وبناء عليه انطلق [ريموند] مسافراً نحو انطاكية، وبالصدفة وقع بين الكشافة الرومان، وكاد أن يؤسر من قبلهم، وقام واحد من الجند الذين تصدوا له بتوجيه ضربة له على الخوذة، لكنه لم يقع لأنه أمسك بكلتا يديه برقبة الحصان، ثم لحق به عدد كبير من أتباعه، فتمكن من العودة إلى ظهره، وهكذا تجنب الخطر، ووصل إلى انطاكية.

وعلى كل حال، كان الامبراطور مشغولاً بحصار عين زربة، وكان الذين في داخل المدينة يخططون لجعل الحصار مخفقاً، لذلك قاموا بتسخين قطع الحديد بوساطة النيران بمافيه الكفاية، ورموها بالآلات،

على رماة الحجارة، وكانت هذه عندما تصبح قريبة تشعل النيران في الأخشاب القائمة أمام الرماة، وأغضب هذا الذي حدث مراراً الامبراطور، وفي حالة الانزعاج اقترب منه ابنه اسحق [السيباستوكراتور Sebastokrator] وقال: «تعال يا أبي وأصدر أوامرك بتغليف المنشآت الخشبية بالقرميد». وعندما أنجز هذا، وجد الذين في داخل المدينة أنفسهم غير قادرين على مقاومة الهجمات المتوالية، ولهذا فتحوا الأبواب وقدموا الطاعة للقائد الروماني.

٨- ووقعت عين زربة، بهذه الطريقة تحت النير الروماني، غير أن ريموند وبلدوين، الذي كان آنذاك صاحب مرعش، وقد شعرا أن الخطر لم يقف بعد أمام أبوابها، جمعا مايكفي من القوات وسارعا نحو فلسطين لانقاذ الملك هناك من الخطر[١١٣٧]، ذلك أن المسلمين الذين عاشوا على مقربة من فلسطين هزموه بالحرب، وكانوا يحاصرونه في قلعة مونت فيراند Mont ferrand [بارين] التي كان قد التجأ إليها.

وبعدما استولى الامبراطور على عين زربة توجه إلى حصار حصن فهكا Vahka [فيكي] قرب انطاكية، وعاد لذلك ريموند وبلدوين مسرعين إليه، وغير في الوقت نفسه الجيش الروماني أوضاع حصار فهكا، ونصب معسكره حول النهر الذي يجري ماراً بالمدينة [أنطاكية]، وكان الانطاكيون في البداية غير خائفين، واثقين بمتانة أسوارهم وببقية الدفاعات، ولهذا عندما طال الحصار لوقت معتبر قام بعض المسجلين بين [المشاة البيزنطيين]، كما يحدث عادة في كل جيش كبير، بالاندفاع نحو الحدائق القائمة أمام المدينة لجمع الفواكه، وهاجمهم [الأنطاكيون] بشكل مفاجيء وقتلوا كثيراً منهم، وعندما انتشر هذا الخبر بين الجنود الرومان، اندفعوا بحماس للانقاذ، وهنا هرب [الأنطاكيون] نحو أبواب المدينة، وفقدوا عدداً كبيراً من رجالهم أثناء الفرار، وعندما استأنف الرومان عمليات الحصار بنشاط وفعالية، أصيب الانطاكيون برعب كبير،

ولهذا غالباً ماقصد ريموند الامبراطور ورجاه بحرارة أن يتخلى له عن المدينة، بشرط وجوب اعلان الامبراطور سيداً لها، واعلان ذلك، لكن على أساس أن يكون ريموند وصياً شرعياً عليها، بموجب سلطان الامبراطور جون، وعندما أخفق ريموند في الحصول على مطلبه، عاد بدون نجاح، لكن بعد مضي عدة أيام، عندما اتخذ المجلس الروماني قراراً حول هذا، استقبل ريموند على أساس الشروط المذكورة، ورضخ بقية اللاتين وسلموا للامبراطور، وكان منهم الذين عرفوا بالاخوان [الاسبتارية والداوية] والذين سكنوا في تلك المنطقة وهكذا جرت الأمور.

وكان الامبراطور جون يمقت أن يضيع الفرصة المناسبة التي تهيأت، فقام بوساطة القوات المذكورة بمهاجمة أعالي سورية، فاستولى بقوة السلاح على حصن بزاعة، وحصل على كميات وافرة من الغنائم منه [١١٣٨]، وأرسل هذه الغنائم مع حشد من الأسرى إلى انطاكية، وذلك بعدما أسند المسؤولية عنهم إلى توماس، الذي كان رجلاً من أصول غير هامة، لكنه دخل —كما أعتقد— منذ طفولته بين موظفي الامبراطور، وذهب الامبراطور نفسه نحو حلب، وهي مدينة قديمة وواسعة الشهرة، وبما أن توماس هوجم بشكل مفاجىء، فقدْ فقدَ الغنائم وقافلة الأسرى التي كان يقودها، ونجا بصعوبة بالغة من الخطر، وعندما وصل الامبراطور إلى حلب، تصور أن المنطقة من حولها كانت بدون ماء تماماً، ولذلك اجتازها دون توقف، وبعدما تغلب على حصني حماة وكفرطاب بالقتال، انتقل نحو شيزر، وهي مدينة مزدهرة وكثيرة السكان، وقد حاصر المدينة هذه واستولى عليها، لكنه عندما تقدم نحو القلعة صدّ خائباً، وفيما هو على وشك الاقلاع بهجوم جديد عليها، وصل إليه بعض الرسل ووعده بمال يدفع إليه فوراً، وأن يوظفوا عليهم مبلغاً يدفعونه سنوياً إلى الرومان، ولقد كان هذا محتوى عرضهم، ورفض الامبراطور هذا العرض، لأنه كان يأمل في أن يتغلب عليهم بالحرب، لكنه بعدما قام بعدة

هجمات مخففة ضدهم اقتنع انه كان يحاول المستحيل، لذلك استقبل رسولهم، وارتحل وفق شروط(٢١).

وقد زودوه بكثير من المال، وأضافوا إلى ذلك صليبا، وكان شيئاً مدهشاً، وهدية تليق بامبراطور، فقد كان عبارة عن حجر لونه أحمر، وبحجم معتبر، وعندما حفر على شكل صليب، فقدَ بالحفر شيئاً من لونه الطبيعي، وقالوا إن قسطنطين الأول، الذي هو الرسول بين الأباطرة، قد أمر بصنعه، وقد آل أمره إلى أيدي المسلمين بطريقة ما، وبعدما تسلم هذا، وأخذ العهود عليهم فيما يتعلق بالجزية المستقبلية، انطلق عائداً نحو كليكية ثانية، وما ان استولى على حصني فهكا وكابنسكيرتي Kap-niskerti ، بقي في تلك المنطقة، لكنه عزل قطعة من الجيش وأرسلها لنهب بقية الحصون، هذا وأن أقوم بتدوين هذه المسائل بالتفصيل، خارج كما أعتقد، عن المهمة التي نحن بصدد تأريخها، فقد كان هدفي الحديث عن الوقائع الحالية باختصار، لأنني لم أكن شاهد عيان لها، كما انني لم أتلق رواية موثقة حولها، وعلى كل حال لقد رافقه الحظ، لذلك استطاع أن ينجز هذا القدر في عامين[١١٣٧-١١٣٨].

٩- لقد حاز الامبراطور على شهرة واسعة في الحروب في آسيا، باستثناء المسائل المتعلقة بنو—قيسارية [نكسار الحالية] فهي لم تسر وفق ماكان قد خططه، فقد كان الوقت بداية الانقلاب الشتوي [كانون أول١١٣٩] عندما عسكر ليس بعيداً عنها، وفكر باخضاعها بوساطة الحصار، لكن بما أن الترك الذين كانوا مستولين على المدينةذوي فعالية عظيمة في ممارسة الحرب والهجوم بعنف عليه، ولأن برد شتاء قارص غير معتاد ضغط بشدة على جنوده، غادر المدينة وابتعد عنها(٢٢)، وفي أثناء زحفه في المناطق المجاورة للترك، استحوذ على غنائم هائلة، وأعاد إلى الأراضي الرومانية حشداً من الرجال، كان الترك قد استرقوهم منذ زمن طويل.

وفي هذه الحملة، أعني عندما كان مايزال يحتل مناطق في نو—قيسارية، حدث شيء يستحق الذكر والسماع، فعندما وقع اشتباك عنيف بين الرومان والترك، صدف أن نال الترك اليد العليا، ولدى ملاحظة مانويل —الذي غالباً [كذا] ماذكرت أنه كان الولد الأصغر للامبراطور— ماكان يحدث، انقض على وسط العدو —دون معرفة أبيه بذلك— ومعه حاشيته، وتمكن من صده ورده إلى الوراء، وأنعش شجاعة جنود الرومان التي ضعفت، وغضب أبوه —محقاً— من هذا ولامه وانتقد تهوره، لكنه في قرارة نفسه أعجب به وتملكته الدهشة، لقيام مانويل، الذي لم يكن قد بلغ الثامنة عشرة من عمره بعد، برمي نفسه وسط خطر عظيم من هذا القبيل، ولهذا أطلق عليه ودعاه علناً بمنقذ الجيش الروماني، وهكذا إن الشجاعة ليست مقصورة على أي عمر أبداً، وفي هذه الحرب بالكاد استطاع أي من الرومان أن يعود على ظهر فرس.

١٠- وهكذا اختتمت قضية نو—قيسارية، وما إن علم الامبراطور أن الترك يشنون حرباً ضدّ سوزوبولس، حتى سارع نحوها بكامل القوى [١١٤٢]، وعندما أخفق في لقاء أي عدو، (لأنهم ماإن علموا باقتراب الرومان حتى انطلقوا فارين)، قاد الجيش نحو بحيرة تدعى بوسغوس Pousgouse[بيشيرغولو](٢٣)، وهي بحيرة تمتد طولاً وعرضاً بشكل عظيم، واستولى على الجزر القائمة وسط الماء كل منها معزول عن الآخر، وكان مبني عليها منذ القدم حصون، وعدّ الناس الذين سكنوا فيها الماء بمثابة خندق، وكان من الممكن بالنسبة لهم الذهاب إلى قونية والعودة في يوم واحد(٢٤)، ولهذا السبب بالذات أولى الامبراطور أهمية خاصة للاستيلاء على البحيرة، وعندما رفض الرومان الساكنين في الجزر الخضوع له والتسليم (لأنهم كانوا منذ وقت طويل وممارسة مديدة، متحدين في مواقفهم مع الأتراك) وضع خطة وفق مايلي:

بعدما جمع أكبر قدر ممكن من القوارب والعوامات ربطها ببعضها

بعضاً بوساطة ألواح على ظهرها، ووضع آلات حربه عليها، وقادهم مباشرة نحو الحصون المذكورة، وعندما اضطربت البحيرة بالرياح الجافة، فُقد عدد كبير من الرومان، ومع هذا، وبعد عنف لامزيد عليه استولى عليهم.

وعندما علم أن ريموند أمير انطاكية قد ثار، زحف مباشرة عائداً إلى كليكية[١١٤٢]، وعزم على منح كليكية وانطاكية مع اطاليا وقبرص إلى مانويل، ليكونوا حصته، وسأروي لماذا عزم على هذه النية، فقد كان منذ وقت طويل مضى قد وعد الرومان باعطاء الصولجان إلى ألكسيوس، الذي كان أكبر أولاده(٢٥)، في حين كان مانويل آخر أولاده ولادة، وراجت حكايات واشارات تتعلق بالحكم قد ظهرت وأفشيت إلى الشاب، وبالنسبة لي هناك حكاية أو حكايتين ليستا غير مناسبتين للرواية:

مرة عندما كان مانويل نائماً، ظهرت له امرأة في الحلم، وكانت مبجلة المظهر، متدسرة بالسواد، وفي يدها الحذاء [اللؤلؤي] الذي يسمح به القانون للأباطرة، وقدمت الحذاء إلى مانويل حاثة إياه على استخدامه، وخلع هذا: مشيرة إلى حذائه العادي الأزرق اللون والخاص(٢٦) بـ[السباستوكراتور]، واستيقظ مليئاً بالخوف، وحيث انه لم يجد ماظهر له، انفجر باكياً مثل طفل، وظن انه أخذ من قبل شخص من أفراد بيته، هذا مايتعلق بهذا الأمر، لكن هناك شيء آخر لم يقلّ أهمية بالنسبة له:

كان هناك راهب من الرهبان بلاده هي طبرية، وكان طريق حياته بعيداً، وكان من سكان الجبال، وعندما وقف مرة أمام الامبراطور جون للوعظ، لاحظ اقتراب الأبناء منه، وقد عامل البقية مثل معاملة المواطنين العاديين، لكن عند اقتراب مانويل منه، خاطبه بتواضع، وعندما استوضح الامبراطور منه سبب صنيعه هذا، أجابه الراهب قائلاً:

«لأن من بينهم جميعاً يبدو لي مانويل امبراطوراً»، ومن هذا الأمر، ومن

أشياء أخرى مرت بالامبراطور بمثابة اشارات لا عدّ لها ولا حصر، وبما انه لم يكن قادراً على أن يغير مابدا له صحيحاً في البداية، تحول بانتباهه ونواياه نحو الخطة التي سلف ذكرها.

لكن يبدو أن مامن واحدة من هذه المسائل، كان متوقفاً على الخطط البشرية، فهو لم يكد يصل كليكية حتى حرم من ولديه الأكبر سناً [ألكسيوس وأندرونيكوس]، في حين عاد [اسحق]، أحد المتبقين الذي لم يكن صحياً بشكل جيد، إلى بيزنطة مرافقاً للجسدين(٢٧)، ثم تقدم إلى عرش الامبراطورية.

ومن المفيد التوقف هنا قليلاً لتبيان كيفية نهاية جون: فبينما كان يصطاد، غلبه خنزير بري، وكان كبيراً، ذلك أن كليكية وجبال طوروس تنتج أعداداً كبيرة من الخنازير، وقد قيل:

وجّه إليه الامبراطور طعنة بالرمح، غير أنه تغلب عليها أثناء اندفاعه وحين انغرس السنان في صدره، اشتعل غضباً بسبب الطعنة، فازداد ضغطاً واندفاعاً، ولذلك التوت ذراع الامبراطور، وسحبت جانباً بسبب شدة المقاومة، كما والتوت في الاتجاه الخاطىء جعبة كانت مليئة بالنشاب، كان الامبراطور مجهزاً بها، وكشط رسغه برؤوس النشاب، وتلا ذلك جرح أصابه فوراً، وفار الدم واندفع من الجرح، ووضع على الجرح رباط رقيق، يدعوه العامة ايكديرا Ekdera (٢٨)، بهدف الربط معاً لما انشطر، ولشفاء الجرح، لكنه ازداد التهاباً وتحرك الألم، وكان ذلك السبب لما نجم بعد ذلك من التهاب، لأنه نقل التسمم إلى بقية الجسد من رأس النشاب الذي كان قد انغرس عميقاً، لكن هذا كان فيما بعد.

وبينما كان مايزال لايشعر بالألم، مدت له طاولة، ووضعت له مساند ليتناول الطعام (٢٩)، وفي أثناء الأكل وقف الأطباء من حوله لمراقبة الرباط، وسألوا عن سبب الجرح، وعندما عرفوا ذلك، اشتكوا بشأن

الطاولة، وطلبوا فك الرباط ورفعه مباشرة عن ذراعه، وأصرّ هو —على كل حال— بشدة على أن الجرح قد أغلق، وانه لايشعر بوجود أي خطر فيما يتعلق بتورم الجرح والتهابه في المستقبل، لكنه بعدما تناول الطعام، وما ان استلقى لينام، شعر فجأة بألم حاد قد اعتراه والورم يهاجم ذراعه، وتمّ استدعاء مجموعة الأطباء، وقام نقاش حول ماينبغي صنعه، ورأى بعضهم أن الأفضل هو فتح التورم، لكن عدم نضجه لم يرض الآخرين، وفضلوا التخلص من الورم بطريقة أخرى، لكن بما انه بدا مريضاً بشكل كبير انتصر يومذاك رأي الجراحة، وعندما فتح الجرح ازداد التورم أكثر، وبات الذراع كله متورماً.

وبدأ الامبراطور يرتجف في قرارة نفسه لتوقعه الموت، خاصة بسبب انه لم ينفذ خطته التي ناضل من قبل في سبيل تحقيقها، وذلك فيما يتعلق بزيارة فلسطين، فلهذه الغاية كان قد صنع شمعداناً وزنه عشرين رطلاً من الذهب، أعده كتقدمة للكنيسة هناك، وبما انه كان وقتذاك في حالة مستعصية على الشفاء، استدعى رجلاً مقدساً، وكان راهباً من بامفيليا Pamphylia، وسأله أن يطلب له الرحمة الربانية بالصلاة طوال الليل، ولقد قيل انه بينما كان الراهب مكرساً نفسه للصلاة سمع أصوات غناء، وانبعث ضوء رؤي من مكان مرتفع، وكان هناك شاب رباني أوقف روحه المضطربة، وهكذا كانت هذه القضية.

ولدى شعور الامبراطور انه في حالة ميؤوس منها، أمر بحضور النبلاء، مع جميع من عدّ بين الأعيان وأمراء الجيش، وخاطبهم كما يلي:

«أيها الرومان الذين اجتمعتم للمشاركة في هذا المجلس معي، لقد رأى عدد من أباطرتنا مع كثيرين انه من المناسب نقل منصب الحاكم إلى ابنائهم بمثابة عمل توريثي، وأنا نفسي أعلم انه لهذا تسلمت السلطة من أبي الامبراطور، وكل واحد منكم يعلم ان الشيء نفسه قد تمّ صنعه

من قبلي في هذه الحالة، وبناء عليه اعرفوا، انني أنا الذي وصلت —كما ترون— إلى نهاية هذه الحياة الحاضرة، قد نقلت المنصب والعرش إلى أكبر أبنائي الباقين لي، وذلك تماشياً مع عادات بني البشر، لكنني شديد الاهتمام بموقفكم، إذا كان الأمر يتعلق بأي واحد من الاثنين، فيما يخص السمات الصحيحة، انني سأختار كل من لايبدو معارضاً لرأيكم ولرأيي، لأنني أرى انه لن يكون مفيداً، لاللمعطي ولاللمتسلم، إذا ما تولى موجه الدفة اغراق السفينة بالجهل، حتى وإن كان سيهلك مع العطية، ولن يستطيع إقامة ادعاء ضدّ المُعطي، انني أقدر ان هذا بلا ادراك، وجهل في تقديم الأعطيات، وعمل غير سليم بالبتة.

لهذا انني شخصياً أعطي الأفضلية لما تقدرونه، وهاكم البرهان التالي:

انتبهوا، لفائدتكم، بقدر مايحتاج الأمر من سرعة، انني جاهز للقيام بعمل مضاد للطبيعة، إن ولديّ كلاهما جيد، وأحدهما متقدم على الآخر بالسن، لكن المنطق الصحيح يرفض الأسن، ويطالب بالأحسن، ويقول إن الجودة تتوافق مع الجودة، وهذا الصراع في جميع الأشياء صعب، إنه صعب أن تحصل على الأفضل، وبما أن الانسان يود أن يعين الجزء الأفضل للشخص الأفضل (لأنه ماالذي هو أعلى من شرف الامبراطورية؟) إنني أرغب، ياجنودي، أن تكون الجودة التامة خاصة بالابن الأكبر، لكن القرار ينظر نحو الأصغر، ويشير معيار الامبراطورية بالحري نحو الآخر ولادة، إنني لست مرغماً على الخوف من أن ماأراه متأثراً بالتفضيل، فأنا أحب ولديّ تماماً بالقدر نفسه، وما من واحد منهما متقدم على الآخر بالأفضلية، ولهذا إن هذا القرار فيما يخصهما ينبغي أن يوكل إليّ أكثر من أن يعهد به إليكم.

وما سأقوله ينبغي أن نتفحصه بكل دقة معاً، ماأعنيه هو:

ياترى عندما يكون ولد أفضل من أخيه، ووضع على العرش، هل

برهن قط على أنه أدنى، أنا نفسي لاأشعر بالثقة حول ان الإثرة قد أبعدت تماماً من خططي، كلما تعارضت مع الكفاءات، ذلك انها كافية لافساد كل قرار، وبناء عليه هل ترغبون في أن ألقي على مسامعكم سماته ومؤهلاته، ومن ثم أنتم تتخذون القرار؟ إنه لواضح لكل انسان كم يمتلك من القوة والقدرة والشجاعة في أعمال الحرب، إن في أحداث نو—قيسارية براهين على مصداق ماأقوله، فعندما كانت أوضاع الرومان آيلة بوضوح إلى التلاشي، قام باستردادها واعادتها، وإذا كان يكفي الاستشهاد عنه بما يعرفه والده فقط فاسمعوا: غالباً، عندما كان البقية في ضياع، كان يظهر لي متماسكاً وصحيح المشورة، وذلك كان كلما عانيت من مصاعب شؤون لاتعدّ ولاتحصى، ولقد كان دوماً قادراً على رؤية العاصفة المقبلة، وبارعاً في تجنب الزوابع وفي مواجهة الرياح العاتية، ويمكننا أن نسوغ أمر اعتبارنا له أمام الآخرين، بحكم أن قرار الرب قد وقع على الأصغر، خذوا بعين التقدير كيف أن ألكسيوس قد جرى استدعاؤه إلى العرش من قبلي، وأعلن القرار ونشر قبل عدة سنوات، لكن الرب قد كشف لي للتو، في اللحظة الأخيرة التي توفي فيها، وأخذ بعيداً ذلك الرجل الشاب من بيننا، وسأخبركم أيضاً ببعض المعطيات التي كشفت فيما يتعلق بقدرة [مانويل] الحالي، باستثناء انني متنبه إلى أن هذه الأشياء ينظر إليها بشكل غير معقول من قبل الجمهور، لأنه مامن شيء أسهل إثارة لخواطر الناس من حكايات الأحلام ونبوءات المستقبل، وكل ماكنت قادراً على معرفته بالنسبة لابني قد رويته أنا نفسي. والآن جاء دوركم لاضافة ماترونه».

وما ان قال الامبراطور هذا، حتى وافقه الآخرون بالسرور، والبكاء، وقام الشاب (الذي أحب والده أكثر من أي شيء آخر) احتراماً منه لقوانين الطبيعة، بالانحناء ووضع رأسه على صدره، وغسل الأرض بدموعه، وبعدما لفّ برداء أمير الجيش، ووضع على رأسه اكليل من

الماس، تمّ إعلانه امبراطوراً من قبل الجيش أجمع، وعاش الامبراطور جون بعد هذا لعدة أيام، ثم غادر هذه الحياة، وكان قد حكم الرومان لمدة خمس وعشرين سنة وسبعة أشهر (كذا) معاً، وقد توفي في اليوم الثامن من الشهر الذي يدعوه الاغريق Xanthikos ، أي نيسان عند الرومان [١١٤٣] (٣٠).